العرب
السبت 2019/08/17
السنة 42 العدد 11439

معركة حماه الشمالية: إستراتيجية روسيا وحساباتها المستجدة

سلام السعدي
كاتب فلسطيني سوري

بعد أشهر من الصمود في وجه الحملة العسكرية للنظام السوري المدعومة روسيًا، انهارت دفاعات المعارضة السورية في ريف حماه الشمالي وريف إدلب الجنوبي ما مكن النظام من السيطرة السريعة على عدد من البلدات في تلك المناطق. ودفع ذلك العديد من المراقبين إلى التساؤل عن السبب وراء التطورات الأخيرة، خصوصا وأن قوات النظام كانت قد تكبدت خسائر كبيرة خلال الأشهر الماضية من دون تحقيق تقدم ميداني يذكر، وهو ما أشر حينها على الضعف الهيكلي الكبير الذي بات ينخر بنية قوات النظام.

عزا عدد من قادة الفصائل العسكرية المعارضة التطورات الأخيرة إلى عودة الميليشيات التي تجندها وتدعمها إيران، وعلى رأسها حزب الله اللبناني، للمشاركة في العمليات العسكرية. وكانت تلك الميليشيات قد امتنعت عن مساندة قوات النظام السوري وانشغلت بتثبيت سيطرتها في مناطق إستراتيجية في محيط العاصمة دمشق وفي دير الزور على الحدود العراقية، في ظل تنافس محموم مع القوات الكردية في تلك المنطقة. وفي ظل تداعي جيش النظام السوري، أحدثت مشاركة الميليشيات الشيعية تحولا هاماً في سير المعارك.

تكثيف الحملة العسكرية وعودة إيران وروسيا للزج بكامل إمكانياتهما العسكرية في المعركة يسبقان عقد جولة جديدة في أستانة بين روسيا وإيران وتركيا. تحاول الدولتان الداعمتان لنظام الأسد قضم أكبر مساحة ممكنة قبل القمة الثلاثية للضغط على الجانب التركي

ولكن السبب الأهم، كما يبدو، هو زج روسيا بقوتها الجوية الضاربة في المعركة وذلك بعد أشهر من التردد بسبب التزاماتها تجاه حليفها التركي. بصورة عامة، تلتزم روسيا بمساعدة النظام السوري على استعادة كافة المناطق الخارجة عن سيطرته. تبدو المناطق التي تخضع لسيطرة الأكراد والولايات المتحدة من جهة، وتركيا من جهة أخرى، خارج تلك المعادلة ولكن بصورة مؤقتة فقط. بمعنى آخر سوف تقتنص موسكو أي فرصة تلوح في الأفق للسيطرة على تلك المناطق.

خلال الأشهر الأربعة الماضية التي شهدت الهجوم العسكري على ريفي إدلب وحماه من قبل نظام الأسد، خفضت روسيا من مستوى التزامها العسكري تجاه النظام السوري وذلك بسبب حسابات تكتيكية تجاه الجانب التركي. كان الجانبان يعملان على إتمام تسليم صواريخ الدفاع الجوي أس- 400. في نفس الوقت، كانت موسكو تراقب بحذر مفاوضات تركيا مع الجانب الأميركي حول المنطقة الآمنة.

بعد تسليم روسيا لنظام الدفاع الصاروخي لأنقرة، وتوصل الأخيرة إلى اتفاق مبدئي مع الولايات المتحدة بشأن منطقة آمنة في الشمال السوري، دفع ذلك روسيا إلى التحرك العسكري من جديد لقضم عدد من المناطق الإستراتيجية التي لا تشكل استعادتها توترا مع الشريك التركي. استهدفت روسيا ريف حماه الشمال وريف إدلب الجنوبي، وهي مناطق ذات كثافة سكانية منخفضة ولن تنجم عنها موجات نزوح ضخمة تقلق تركيا. في نفس الوقت، لتلك المناطق أهمية إستراتيجية وترتبط استعادتها برغبة روسيا في السيطرة على مدينة إدلب في المستقبل.

ما يجري في ريفي إدلب وحماه هو تكرار لذات الخطة العسكرية التي اتبعها النظام السوري والتحالف الداعم له منذ تدخل روسيا العسكري في العام 2015. وتتمثل الخطة في شن هجوم مركز، بأعداد كبيرة من الجنود، وبتمهيد جوي مكثف تضطلع به روسيا من خلال تقنيات متقدمة كالمراقبة عبر الأقمار الصناعية واستخدام طائرات الاستطلاع. تكثف قوات النظام السوري والميليشيات الشيعية الهجوم على نقطة أو نقطتين إستراتيجيتين تمكّن السيطرة عليهما من شطر المنطقة الخاضعة للهجوم والتي تسيطر عليها المعارضة إلى قسمين. يؤدي ذلك إلى قطع خطوط الاتصال بين مناطق المعارضة وعزلها عن بعضها البعض. تخضع كل منطقة معزولة لحصار قاس من جميع الجهات بحيث يصبح القتال حتى النهاية هو الخيار الوحيد للمقاتلين، وهو ما يضعف معنوياتهم ويدفعهم إلى القبول بشروط الجانب الروسي والخروج من بلدات سيطرتهم إلى مناطق جديدة في الشمال السوري.

استخدمت روسيا هذه الإستراتيجية القتالية في عدد من المعارك خلال العامين الماضيين، فقطعت أوصال مدينة حلب في العام 2016، وفعلت ذات الأمر في الغوطة الشرقية ودرعا في العامين الماضيين، وانتهت جميع تلك المعارك باتفاقيات استسلمت فيها قوات المعارضة ونقلت نحو الشمال.

في الهجوم الأخير، كثفت روسيا والنظام وإيران الهجوم على كل من بلدات السكيك والهبيط وخان شيخون. جرت السيطرة خلال الأيام الماضية على أول بلدتين ويتواصل الهجوم على خان شيخون، التي ستؤدي السيطرة عليها إلى شطر ريف حماه الشمالي عن ريف إدلب الجنوبي وإطباق الحصار على الأول.

ومن الملاحظ أن تكثيف الحملة العسكرية وعودة كل من إيران وروسيا للزج بكامل إمكانياتهما العسكرية في المعركة يسبقان عقد جولة جديدة في أستانة بين روسيا وإيران وتركيا. هكذا، تحاول الدولتان الداعمتان لنظام الأسد قضم أكبر مساحة ممكنة قبل القمة الثلاثية للضغط على الجانب التركي. لقد بدأت أنقرة تثير مخاوف موسكو وطهران خلال الشهر الماضي، وذلك بسبب توصلها إلى اتفاق مع الإدارة الأميركية بخصوص إقامة منطقة آمنة، فضلا عن تصعيد دعمها العسكري لفصائل المعارضة السورية. بهذا المعنى، يبدو أن الهجوم سيستمر، بل ويتسارع ويزداد شراسة، قبل اجتماع أستانة الجديد.

تعالوا نصبح سوريين ثانية

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

حتى إذا نجح الجيش النظامي السوري في حسم الحرب الدائرة في إدلب، لن ينتهي الاقتتال. والسبب بسيط للغاية.

دعونا نعد قليلا إلى الوراء، نتذكر ماذا حصل في غوطة دمشق، وريف حمص، وحوران، وفي مناطق أخرى من سوريا، حيث جرت مصالحات بقوة السلاح، وبإشراف مباشر من روسيا. المصالحة لم تكن سوى حبر سال على الورق، لتنتهي باعتقالات واسعة، وفرار عشرات الآلاف من تلك المناطق.

انضم الفارون إلى قوافل المهجرين، من كان محظوظا منهم وجد طريقه إلى خارج سوريا. الباقون، الذين لم يحالفهم الحظ، انتهوا في جحيم إدلب يفترشون العراء.

اليوم يعيش في محافظة إدلب قرابة أربعة ملايين مواطن سوري، ينتظرون مصيرهم، أغلبهم مستعد للموت، فهم جربوا المصالحة من قبل، لينتهوا محاصرين من جديد، ولكن هذه المرة مبعدون مشردون.

مشروع المصالحة يجب أن يسبق الحل العسكري، ويجب أن يكون بوصلة تحدد للمواطن السوري أي اتجاه يختار، هل يختار أن يتجه إلى طرف الميليشيات المسلحة أو يتجه إلى القوات النظامية؟

مخطئ من يظن أن السوري يختار طواعية حماية الميليشيات والجماعات المتطرفة لأنه يؤمن بمشروعها.

السوري حضاري بالوراثة، عرف التجارة والمدنية، وكان سباقا في العيش بحماية القانون، وهو إن رضي بالعيش في ظل المتطرفين، رضي به لأنه لا يثق بالجهة الأخرى، التي خذلته.

لا يوجد سوري عاقل واحد –والسوريون عاقلون عادة– يرضى بأن تقع سوريا فريسة للتطرف، ولكنه محاصر لا يعرف في أي اتجاه يسير.

في مطلع الثمانينات لم يتردد السوريون في دعم الحكومة في مواجهة الإخوان المسلمين، وكان تجار حلب ودمشق أوائل المناضلين الذين وقفوا في وجه الإسلام السياسي. كلهم يعلمون، بالسليقة، أن الدين لله والوطن للجميع.

من مصلحة السوريين جميعا أن ينتهي الاقتتال، ولكنّ هناك أسئلة تفرض نفسها؛ ماذا قبل ذلك؟ وماذا بعده؟ من يضمن أن يحترم المنتصر وعوده؟ هل قدم كل طرف برنامجه؟ هل أعلن أنه لن يَشْرع في نصب محاكم تفتيش ترفع شعار: كل من لم يكن معنا هو ضدنا اليوم؟

ومن لم ينته معتقلا، هل سيضمن أنه لن يصنف مواطنا من الدرجة العاشرة، يحرم من حقوقه المدنية، ومن العمل، ويجرّد من إنسانيته؟

الدم، لا يتم.. هكذا قال قدماؤنا، إلا برعاية من كبار القوم، واليوم الدم لن يتوقف إلا باتفاق ترعاه منظمات دولية، وتشرف عليه دول عربية شقيقة، تعرف مكانة دمشق وتحرص على صيانتها.

الكارهون لكلمة "تدويل" منافقون، ما يحدث في سوريا يحدث في ظل قوى دولية؛ روسيا، وتركيا، وإيران، والولايات المتحدة وأطراف أوروبية أخرى. ولكنه لا يحدث في ظل الشرعية.

تعالوا أولا، نتفق على كلمة سواء، تعالوا نكن مواطنين سوريين، ليست لهم هوية أخرى، طائفية، أو عرقية، أو حزبية.. مواطنين سوريين وكفى.

وتعالوا ثانيا، نَدْع إلى تدويل "شرعي" برعاية مباشرة من دول شقيقة، تدويل يضمن حق الأطراف الحكومية، وحق المواطن السوري الذي وجد نفسه، دون إرادته، في الجانب الآخر.

لنطالب، حكومة ومواطنين، بمبادرة دولية تبعد أمراء الحرب عن سوريا، ونضع مشروع مصالحة مبنيًا على نسيان الأحقاد، نحن لسنا أحفاد داحس والغبراء، بل أحفاد الكنعانيين والفينيقيين وأحفاد الأمويين.

تعالوا نبن مشروعا مستقبليا قائما على احترام الاختلاف بيننا، وإحياء ثقافة المساواة. لا فضل فيه لعلوي على سني، ولا لمسيحي على درزي، ولا لكردي على أرمني أو تركماني أو شركسي.

سوريا بلد غني، بمصادره الطبيعية والبشرية، غني بتنوعه واختلافه، ولم يكن فقيرا يوما. لنترك أحقاد الماضي وننسَ آلام الحاضر، ونجنب سوريا المزيد من الخسائر. فالحل لن يكون إلا بإحلال دولة الدستور والقانون.

اكتب بوصفي مواطنا سوريا، اغترب أربعين سنة عن أرض أحبها، مزروعة بقلبه، لم تفارقه لحظة.

مواطن سوري محاط بحب أصدقاء أبطال، بعضهم غادروا، وكثير منهم تشبثوا بالبقاء.. أصدقاء يخجل أي منهم أن يُعرّف نفسَه بغير كلمة سوري. باقة جميلة منوعة ومختلفة الألوان مقطوفة من حدائق سوريا، هؤلاء هم أصدقائي، هؤلاء هم السوريون.

تعالوا نحم سوريا من التحزب، والتطرف الديني، والولاء العرقي.. تعالوا نكن سوريين ثانية.

سوريا.. وجهان لعملة واحدة

بهاء العوام
صحافي سوري

صديق صحافي من إدلب كتب منشورا على صفحة فيسبوك قال فيه "لعدة سنوات تحمّل المدنيون في إدلب بطش بعض الفصائل وتسلطها على مفاصل الحياة، حتى المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي كان يلاحق أصحابها، نحن لا نُخوّن أحدا ولكن نذكر حقائق. من جعل نفسه وصيا على الناس عليه بحمايتهم".

كلمات المنشور تختصر واقع المعارضة السورية ليس في إدلب فقط، وإنما في كل مكان تحرر فيه السوريون من ظلم نظام الأسد ليجدوا أنفسهم تحت مقصلة الفصائل المسلحة. ثاروا على استبداد الأسد فاستعبدتهم تلك الفصائل تحت عناوين من قبيل "حماية الثورة"، و"ثورة إلى الأبد"، و"في الثورة تكمن الحياة".

لم تقدم فصائل المعارضة بديلا أفضل عن النظام. كانت أسوأ منه في أحيان كثيرة. وعندما تقترب أكثر من المشهد لتقرأ التفاصيل تجد أن المعارضة والنظام وجهان لعملة واحدة. لا فرق بينهما على الإطلاق، ولو كان السوريون يدركون ذلك لما ثاروا على نظام الأسد ودمروا حياتهم من أجل حفنة مرتزقة وانتهازيين ومستبدين.

النظام باع البلاد والعباد من أجل أن يبقى على رأس السلطة، وفصائل المعارضة باعت أيضا وقبضت الأثمان وفرت من البلاد. النظام سلب الناس كل أنواع الحريات باسم ثورة آذار والحركة التصحيحية، وكذلك فعلت فصائل المعارضة في المناطق التي سيطرت عليها وحكمت فيها باسم الثورة على نظام بشار الأسد.

لم يجرؤ أحد قبل الثورة على نقد نظام الأسد بحجة أن البلاد في حالة حرب، وأي نقد داخلي من شأنه أن يوهن نفسية الأمة ويضعف صمود البلاد أمام المحتل الإسرائيلي، لم يحارب السوريون المحتل الإسرائيلي قط، ولكن الأسد أبقاهم لعقود مكممي الأفواه ومغلولي الأيدي بحجة أنه يقاتل الاستعمار والإمبريالية.

فصائل المعارضة فعلت الشيء ذاته، كممت الأفواه وقيدت الأيدي بحجة أم الحروب ضد نظام بشار الأسد. من يخالف مشيئتها يصنف خائنا، ويحاكم بذات التهم التي يطلقها الأسد على معارضيه. وبدل أن تحرر السوريين بَنَتْ فصائل المعارضة في مناطقها السجون والمعتقلات ونفت وقتلت أبرياء كثيرين.

الشواهد كثيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نتذكر: التسجيلات المسربة عن قادة الفصائل وهم يتناحرون بسبب أموال الدعم، مستودعات الغذاء المتخمة التي كانت تغرف منها الفصائل في الغوطة بينما السكان يموتون جوعا تحت حصار النظام، اختطاف رزان زيتونة ورفاقها بسبب توثيقها لانتهاكات المعارضة والنظام.

وكما يخضع النظام لمشيئة داعميه، يتحكم داعمو فصائل المعارضة بمصيرها. تحارب متى يريد وتستسلم متى يريد. هذا ما حدث في حلب وريف دمشق ودرعا، وهذا ما يحدث اليوم في إدلب. وهنا تجدر الإشارة إلى أن داعمي النظام كانوا منذ البداية أكثر صدقا في مواقفهم من داعمي المعارضة ولم يتخلوا عنه حتى الآن.

ثمة من يعتقد أن الساسة ورجال الدين في النظام والمعارضة أقل تورطا في دماء السوريين من قادة العسكر. العكس هو الصحيح، فرجال الدين هم من يبيعون حَمَلة السلاح صكوك غفران على مجازرهم، والساسة هم من يحقنون الشعوب بشعارات مخدرة تسلبها حريتها وتصنع منها حواضن لقادة وأرباب الإرهاب من الطرفين.

صديقي من إدلب يقول إن من جعل نفسه وصيا على الناس عليه أن يحميهم. ولكن السوريين لم يثوروا على وصاية الأسد طمعا بوصاية الجولاني، ومن يظن أن معارضة مثل الائتلاف وجبهة النصرة هي أقصى ما يستحقه السوريون في ثورتهم، هو تماما مثل الذي يعتقد أن البلاد لم تنجب رئيسا إلا "الأسد" و"أشباله".